الفصل الثاني

حياة الإمام ابن حزم الظاهري وترجمته

تمهيد :

جاءت سطور هذا الفصل لتوضح بشكل يسيرٍ ترجمةً خاصةً للإمام ابن حزم الظاهري، يتناول فيها الكاتبُ : اسمه، وكنيته، ولقبه وشهرته، ومولده، ونشأته وطلبه للعلم، وشيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته، ومذهبه الفقهي، ومكانته العلمية وثناء العلماء عليه، وصولاً إلى وفاته، وذلك لمحاولة رسم صورةٍ بانورامية واضحةِ المعالم عن حياة الإمام منذ مولده حتى وفاته .

اسمه :

تناول عديد من كتب التراجم ابن حزم الظاهري، وكان مادةً خصبةً لها، ومن هذه التراجم يقول الحميدي عن اسمه : هو " علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب "(١) .

وقال صاعد الأندلسي هو " علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي "(٢) .

١- الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن عبد الله ت٤٨٨هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، مصر: القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، صـ٣٠٨ .

٢- صاعد الأندلسي (أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد ت٤٦٢هـ)، طبقات الأمم، مصر: القاهرة: المكتبة المحمودية التجارية، (د.ت)، صـ١٠١ .

وقال ياقوت الحموي . هو " علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي "(١) .

وأثبت هذا النسب ابن خلكان بقوله هو " علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي "(٢) .

وقال اليافعي : " هو عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم "(٣) .

وبعد عرض اسمه من خلال هذه التراجم، وقراءة تراجم أخرى يخلص الكاتبُ إلى أنّ اسم ابن حزم الثابت في كل المراجع دون خلاف هو عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب .

كنيته : يُكنى ابن حزم بـ " أبي محمد " . وهذا واضحٌ جليٌّ في معظم مؤلفاته .

لقبه وشهرته : ذاع وشاع اسمه في الأوساط العلمية وغيرها باسم "ابن حزم " . وهو اسم جده الثاني .

مولده : مكان المولد وُلِدَ ابن حزم بقرطبة(٤) . " بالجانب الشرقي من ربض منية المغيرة "(٥) . قرب مدينة الزهراء .

١- ياقوت الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، مصر: القاهرة: دار المأمون، ١٣٥٥هـ، ج١٢، صـ٢٣٦،٢٣٥.

٢- ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابي بكر ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لبنان: بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٠م، ج٣، صـ٣٢٥ .

٣- اليافعي (ابو محمد عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان ت٧٦٨هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط٢، لبنان: بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٣٩٠هـ، ج٣، صـ٧٩

٤- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، لبنان: بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٥٧م، صـ٣٩٣ .

٥- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، ط٩، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، لبنان: بيروت: موسسة الرسالة، ج١٨، ١٤١٣هـ، صـ١٨٤

زمان المولد : وُلِدَ ابن حزم في اليوم الأخير من شهر رمضان المعظم عام ٣٨٤هـ. يقول صاعد الأندلسي : " وكتبَ إليَّ بخط يده أنه وُلِدَ بعد صلاة الصبح قبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان المبارك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة "(١) وعليه فإنَّ ابن حزم قد وُلِدَ يوم الأربعاء السابع من نوفمبر عام ٩٩٤م* (٧/١١/٩٩٤م)، وهذا بخلاف ما هو متعارف عليه بأنَّ العَالِمَ لا يُعرف تاريخ مولده، لكن يُعرف تاريخ وفاته، لأنه وُلد مغموراً ومات مشهوراً .

نشأته :

نشأ ابن حزم في قصر أبيه في الجانب الشرقي من ربض منية المغيرة قرب مدينة الزهراء في الشارع الآخذ من النهر الصغير إلى الدرب المتصل بقصر الزهراء(٢) . وكان من بيت وزارة ورياسة ووجاهة ومال وثروة(٣) ، حيث استطاع أبوه أن يتصل بالأوساط السياسية ويكسب ثقة الحكام بما وهبه اللّهُ من الذكاء وما تمتع به من العلم والأدب وحسن الإدارة، حتى أصبح من كبار وزراء المنصور بن أبي عامر(٤) .

وفي هذا القصر وفي هذه البيئةِ الناعمةِ، وسط هذه الأسرة نشأ ابن حزم في كنف جواري أبيه، حيث كان للنساءِ تأثيرٌ كبيرٌ في تربيته وتوجيهه وتنشئته فهو يقول : " لقد شاهدتُ النساءَ وعلمتُ من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيتُ في حجورهن، ونشأتُ بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالستُ الرجالَ

١- صاعد الأندلسي، مرجع سابق، صـ١٠٣ .

* استخدم الكاتبُ عدة برامج إلكترونية لتحديد يوم مولد ابن حزم بالتاريخ الميلادي .

٢- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت٤٥٦هـ)، طوق الحمامة في الألفة والإلاف، تحقيق: حسن كمال الصيرفي، مصر: القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٦٤م، صـ٧٤ .

٣- ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر البصري ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، لبنان: بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١٢، صـ٩٢ .

٤- أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، مصر: القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م، صـ٣٥٢ .

إلا وأنا في حد الشباب وحين تفيل وجهي، وهن علمنني القرآن، وروينني كثيراً من الأشعار، ودربنني في الخط "[1]. ومن هنا نشأ ابن حزم نشأةً مرفهةً ناعمةً، في بيئة أرستقراطية مثقفةٍ[2].

ولهذه النشأةِ آثارٌ واضحةٌ في فكر ابن حزم وسلوكه " فالإطار الثقافي للمرأة واهتماماتها ودوافع سلوكها تختلف نسبياً عن الرجل، والعادات والاتجاهات التي ارتبطت بدور المرأة ووظائفها خلال آلاف السنين لابد أن تترك بعض الآثار على سلوكها، تنتقل باللاشعور لأجيال المتعلمين الذين تتعامل معهم، فالمعاشرة والاقتداء والتفاعل والاختلاط لابد أن تكون له بعضُ الآثار الجانبية التي تُكسب التلاميذ الصبيان بعضاً من أنثويات المرأة وأسلوب حياتها الخاص "[3].

ففي هذه السن المبكرة يتخذ الطفلُ المعلمَ بديلاً عن الأب، والمعلمة بطبيعتها وتكوينها عاطفية أكثر من المعلم، مما يؤثر على تربيتها للمتعلمين، ويجعل هذه التربية تختلف اختلافاً نسبياً عن تربية المعلمين .

وقد أثّرتْ هذه النشأةُ في ابن حزم، فيقول الدكتور/ الطاهر أحمد مكي : "فعلى أيديهن نشأ ابن حزم ومعهن تربى، ومنهن تُعلّم أشياءَ ليست أقل نفعاً، ولكنها مؤديةٌ في سن الطفولة؛ لذا نشأ صبياً سريع التأثر، كثير المرض، ملحوظ العصبية، متقد الذكاء، مطبوعاً على الغيرة، سيئ الظن بالمرأة "[4].

١- ابن حزم، طوق الحمامة في الإلفة والآلاف، مرجع سابق، صـ٥٠

٢- حسان محمد حسان، ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي، مصر: القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٤م، صـ٣٩، ٤٠

٣- المرجع سابق، صـ٤١ .

٤- الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط٢، مصر، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، صـ٧٧ .

لكنَّ أباه أبا عمر لم يتركْ أمرَ تربيته لجواريه فقط، بل كانت عنايته به كبيرةً، حيث كان يصحبه معه إلى مجلس الحاجب المظفر بن أبي عامر لسماع الشعر وهو في الثانية عشرة من عمره[١]. فنشأ ابن حزم في هذه الحقبة من حياته مُلِمًّا بالقراءة والخط والأدب فنراه ينظم الشعر ولم يبلغ الحلم[٢].

ومن العوامل التي سطَّرها ابن حزم عن نفسه في هذه الحقبة التي اتسمت بالترف والرفاهية، عاملٌ أثَّر في استقامته وعدم ذوبانه في حياة الترف ودواعي الفساد التي عاشها وعاصر مظاهرها في قصر أبيه، وهذا العامل يتمثل في أنَّ ابن حزم كان محاطاً في قصر أبيه برقباء ورقائب يرشدونه إلى الخير، وبعد أن كبر ابن حزم وجهه أبوه إلى صحبة شاب صالح اسمه أبو علي الحسن بن علي الفاسي، ليقتدي به وينتفع بعلمه ودينه وورعه[٣].

ومجملُ القولِ أنَّ ابن حزم وُلِدَ ونشأ وعاشَ في كنف أبيه الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم، في قصرٍ شامخٍ مشيَّدٍ في إحدى ضواحي قرطبة بالأندلس، وتَرَبَّى وسط نساءِ أبيه فاكتسب منهن بعضَ الصفات التي أثَّرت في شخصه وحياته وفكره.

ومما سبق يتضح أن ترف البيئة ونعومتها وأرستقراطيتها، جعلتْ من ابن حزم ذلك الصبي المطبوع على فرط التدليل ونعومة المشاعر وإباء النفس. كما وجهته التربيةُ المحافظةُ إلى البُعدِ عن كل ما يشين، بالرغم من حياة الترف، ومخالطة صنوف النساء في بيت أبيه[٤].

١- الحميدي، مرجع سابق، صـ٢٤١.
٢- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ١٨.
٣- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ١٢٦.
٤- أحمد هيكل، مرجع سابق، صـ٣٥٣.

طلبه للعلم :

بدأ ابن حزم طلبَ العلم وهو صغيرٌ، فتَعَلَّمَ القرآنَ، وبعض الأحاديث، وروى كثيراً من الأشعار، وتعلَّم القراءةَ والخطَ على أيدي النساء، فهي طفولته لم يرسله أبوه ليتعلم في حلقات الجامع، ولم يعهد به إلى مدرس بل فَضَّلَ أن يعلمه في القصر.

ويؤكد ذلك ابن حزم نفسه بقوله : "لقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشاب، وحين بقيل وجهي، وهن علمني القرآن، ورويني كثيراً من الأشعار، ودربني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني من أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تَعَرُّف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك "[1].

ولَمَّا ناهز ابن حزم الاحتلامَ، أخذ والده يصطحبه معه إلى بعض مجالس الحاجب المظفر بن أبي عامر وسمع فيها أبا العلاء صاعد بن الحسن ينشد الشعر، ثم بدأ يلازم الشيوخ ويرتاد مجالسهم، فقد ذكر صحبته للفاسي بقوله صحبت أبا علي الفاسي في مجلس القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستادي رحمه الله[2].

ثُمَّ سلك طريق العلم فكان أول سماعه من أبي عمر أحمد بن الجسور، روى الحميدي عنه : " أنه أول شيخ سمع منه قبل الأربعمائة "[3]، وعلى هذا فإن أول سماعه للعلم كان قبل أن يبلغ السادسة عشر من عمره .

١- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت٤٥٦هـ)، رسائل ابن حزم، تحقيق احسان عباس، لبنان: بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧م، ج١، صـ١٦٦ .

٢- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ٢٧٥ .

٣- الحميدي، مرجع سابق، صـ١٠٧ .

ثم اهتمَّ بدراسة المذهب السائد في الأندلس مذهب الإمام مالك، فقرأ الموطأ على عبد الله ابن دحون المالكي، وتفقه على مذهب مالك رحمه الله[1]، ثم انتقل الإمام من المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي[2]، " وناضل عن مذهبه، وانحرف عن مذهب غيره، حتى وُسِمَ به، ونسب إليه، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء، وعيب بالشذوذ "[3]، " فمضى على ذلك وقتٌ، ثم انتقل إلى مذهب الظاهر، وتعصب له "[4]، " ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه إلى أن مضى لسبيله رحمه الله "[5]، ومما أعانه على ذلك ما أنعم الله به عليه من الذكاء المفرط، وقوة الحفظ، والذهن المتوقد، حتى صار إماماً يذكر عنه كثيرٌ من العلوم .

وتتلمذ ابنُ حزم على يد كثيرين من الشيوخ وأخذ عنهم العلم، هؤلاء العلماء الذين كانوا أعظم ما ملأ السمع والأبصار في قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس .

شيوخه :

عاصر ابنُ حزم الظاهري كثيراً من الشيوخ ذوي الفضل والرأي من علماء عصره، الذين ارتاد مجالسهم وتردد عليهم، فتلقى عنهم العلمَ، وقد " عُرِفَ ابن حزم بكثرة سماعه، فأجمع أكثرُ المؤرخين له بأنه سمع سماعاً جمًّاً سواء في قرطبة أو المرِّية، أو بلنسية، أو شاطبة، لكن الحديث عن تلقي ابن حزم فروعاً دقيقة على كلِّ شيخ من شيوخه على حده من الصعوبة بمكان في عصر لم يكن التخصصُ

١- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت٧٤٨هـ)، تذكرة الحفاظ، لبنان: بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٣، صـ١١٥٠ .

٢- عبد الواحد المراكشي (محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي ت٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، مصر: القاهرة: دار الاستقامة، ١٩٦٣م، صـ٩٤

٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ٢٠٠ .

٤- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ت٨٥٢هـ)، لسان الميزان، ط٢،لبنان: بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م، ج٥، صـ٤٨٩ .

٥- ابن بسام (أبو الحسن بن علي بن بسام الشنتريني ت٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، لبنان: بيروت: دار الثقافة، ١٤١٧هـ،ج١، صـ١٦٨ .

الدقيقُ الفاصلُ بين أنواع العلوم موجوداً، بل غالباً ما كان المحدثُ فقيهاً ومنطقياً ولُغوياً، وشاعراً، وإنَّما الأمرُ مجرد غلبة علم في ميول كل أستاذ من أساتذته "[1].

وبالتالي فإن الحديث عن تلقي ابن حزم فروعاً دقيقة على كل شيخ من شيوخه لا تركيه طبيعة الكتاب من حيث انتمائه إلى الحقل التربوي.

وقد أجمعت المؤلفات التي تمتْ حول ابن حزم على أنَّ فهرس شيوخه مفقود لم يُعثر عليه بعد، وحاول البعض جاهداً تحري أثرهم وحصر أسمائهم من ثنايا مؤلفاته المتوافرة بين أيدينا، إلا أنها لا تفي بالغرض في الإلمام بهم جميعاً وتَعَرّف الحقب الزمنية التي تلقى فيها عنهم، وكذلك ترتيبهم في تعليمه أو القراءة عليهم، إلا أن المتفق عليه أنَّ ابن حزم بعد تلقيه الدرس على يد أبي علي الحسن بن علي الغاسي. تلقى وسمع من الكثيرين، منهم من ذكرت التراجم والمراجع أسماءهم وأفاضت في وصفهم وتصنيفهم، ومنهم مَن ذكرهم ابن حزم نفسه في مؤلفاته.

وفيما يلي يجتهد الكاتبُ لذكر أشهر العلماء والشيوخ الذين سمع عنهم ابن حزم، من خلال ما وقع بين يديّ الكاتب من كتب مَن ترجموا له، ومن خلال كتب ابن حزم نفسها، وأشهر هؤلاء العلماء هم:

١- عبد الله الأزدي المعروف بـ " ابن العرضي " (ت٤٠٠هـ)[2].

٢- أبو عمر أحمد بن الجسور (ت٤٠١هـ)[3].

٣- يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود بن وجه الجنة (ت٤٠٢ هـ)[4].

١- عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ط٢، مصر- القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، صـ٩٨

٢- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ٢٦٢

٣- الحميدي، مرجع سابق، صـ٣٠٨ .

٤- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك ت٥٧٨هـ)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، ط٢، تصحيح: السيد عزت العطار الحسيني، مصر: القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٢، صـ٦٢٧

٤- أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي (ت٤١٠هـ)[١].

٥- محمد بن عبد الله بن هاني بن هابيل اللخمي البزار (ت٤١٠هـ)[٢].

٦- عبد الرحمن بن عبد الله الهمذاني (ت٤١١هـ)[٣].

٧- عبد الله بن ربيع التميمي (ت٤١٥هـ)[٤].

٨- أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن حجاف الغافري (ت٤١٧هـ)[٥]

٩- حمام بن أحمد القاضي (ت٤٢١هـ)[٦].

١٠- أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت (ت٤٢٦هـ)[٧].

١١- أبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي (ت٤٢٨هـ)[٨].

١٢- محمد بن سعيد بن نبات (ت٤٢٩هـ)[٩].

١٣- يونس بن عبد الله بن مغيث القاضي (ت٤٢٩هـ)[١٠].

١٤- أحمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ البياني (ت٤٣٠هـ)[١١].

١٥- عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون (ت٤٣١هـ)[١٢].

١٦- عبد الله بن يوسف بن نامي (ت٤٣٥هـ)[١٣].

١- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ٨١ .
٢- ابن بشكوال، مرجع سابق، ج٢، صـ٢٧٦ .
٣- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ٢٩١ .
٤- ابن بشكوال، مرجع سابق، ج١، صـ٢٥٣ .
٥- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ٢٩٤ .
٦- ابن بشكوال، مرجع سابق، ج١، صـ١٥٣ .
٧- سعيد الأفغاني، ابن حزم الأندلسي ورسالة المفاضلة بين الصحابة، ط٢، لبنان: بيروت: دار الفكر العربي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، صـ٣٥ .
٨- الضبي (أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ت٥٩٩هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ١٨٨٤م، صـ١٥١ .
٩- ابن بشكوال، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٩٢ .
١٠- المرجع السابق، صـ٦٤٦ .
١١- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ٢٢ .
١٢- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، صـ٢٦٤ .
١٣- الذهبي، تذكرة الحفاظ ج٣، صـ١١٤٦ .

١٧- عبد الله بن محمد بن عثمان (ت٤٤٠هـ)[١] .

١٨- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (ت٤٦٣هـ)[٢] .

١٩- أحمد بن عمر بن أنس العذري (ت٤٧٨هـ)[٣] .

٢٠- أبو الحسن علي بن سعيد العبدري (ت٤٩١هـ)[٤] .

٢١- محمد بن الحسن المذحجي المعروف بـ "ابن الكتاني" (توفي بعد الأربعمائة بمدة)[٥] .

هؤلاء بعضٌ من شيوخ ابن حزم، ولقد اجتمع له جمعٌ غفيرٌ من الشيوخ بالإضافة إلى ما امتنَّ اللهُ به عليه من الذكاء، والفطنة، وسيلان الذهن، وسرعة البديهة، وقوة الحفظ، وبالإضافة إلى ما اجتمع عنده من كتب العلماء جعلته رائداً من روَّاد العلم في الأندلس، قال الذهبي : " نشأ في تَنعُّمٍ ورفاهيةٍ، ورُزِقَ ذكاءً مفرطاً وذهناً سيَّالاً، وكتباً نفسية كثيرة[٦] .

وسماع ابن حزم من كلٍّ هؤلاء ينفي قول الشاطبي : " إنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ ولا تأدَّب بآدابهم"[٧] .

فقد تلقى ابن حزم عن كثير من العلماء، وكان يخالط كثيرين من ذوي الرأي والإحاطة من علماء عصره، ولم تمنعه مكانته الاجتماعية من كثرة السماع والتلقي ولم تحلْ دون عزيمته المحن والمصائب التي لاقاها في مسيرة حياته، بل كان

١- الحميدي، مرجع سابق، صـ٢٦٣ .
٢- ابن كثير، مرجع سابق، ج١٢، صـ٩٣ .
٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ٢٢ .
٤- سعود الأفغاني، مرجع سابق، صـ٣٥ .
٥- ابن خلكان، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢٦ .
٦- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٨٦ .
٧- الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي ت٧٩٠هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، ط٢، مصر: القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٩٥هـ ج١،صـ١٤٤ .

أقوى من تلك الأحوال، فواصلَ الطلبَ بعقلٍ لا يكل، ونفسٍ لا تمل، حتى أصبحَ إماماً حجةً .

ويرى الكاتبُ أنَّ ابن حزم لم يقتصر فقط على ما تلقَّاه على أيدي الشيوخ بل قرأ واجتهدَ وفحص وغاص في أعماق أعماق المؤلفات، فما كان ابن حزم يتقيد بمذهبٍ معينٍ ولا شخصٍ معينٍ، بل كان يطلب العلمَ حيث وجده، ويسعى إلى الحكمة يلتقطها حيث وجدها، وبذلك اجتمع له الاطلاع الواسع الذي دلَّت عليه العلوم التي تركها للأجيال من بعده .

تلاميذه :

من مِنَّةِ اللهِ وكرمه فضله على هذه الأمة أن حفظَ لها مآثر علمائها، وعلومهم بعد موتهم وانقضاء أعمارهم، لقاء إخلاصٍ كانوا عليه، وحسن توجه قابلوا رَبَّهم عليه، وحسن ديانةٍ ودَّعوا الدنيا بها .

فلكل عَالِمٍ من العلماء تلاميذه الذين ينهلون من علمه، ويمثلون امتداد مذهبه وفكره، وكان ابن حزم ذا علم واسع غزير، وثقافة متنوعة، وكان من الأئمة الذين تفانوا في نشر علمهم ومن أصحاب الهمم العالية، لكنه كان عنيفاً في آرائه أحياناً جريئاً في مواقفه، حاداً في جدله، مما أثار عليه فقهاء عصره، فنفروا منه، وشنَّعوا عليه، ونهوا العوام من الأخذ عنه، وحذَّروا الحكام والأمراء منه، وحرَّضوهم عليه حتى نفوه عن بلادهم .

ومع ما ذُكِرَ فقد استمرَ ابن حزم سالكاً طريقته بعزيمةٍ صادقةٍ لا تعرف التردد، سائراً في طريقته لا يلتفت إلى مَن يخالفه، يبث علمه فيمن ينتابه من الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ولا يسمعون أصواتِ المحذرين عنه، لثقتهم به ومعرفتهم بحقيقته، وإيمانهم بعلمه وفكره .

ورغم كلّ هذا فلم يكن الجميعُ أعداء لابن حزم، بل كان له شيعة تناصره وتعاضده، وكان له طائفةٌ من التلاميذ والأتباع، وهم وإن كانوا قلة إلا أنه كان لهم الأثر الكبير في نشر علمه حتى طار ذكره في الأفاق[1].

وعلى الرغم مما كان عليه من اضطهاد، فقد استمر في التأليف والدرس، وبث العلوم المتنوعة حتى تُوفِّي، ولقد أقبل طلبة العلم على ابن حزم، ونهلوا من علمه وتتلمذوا عليه.

والوصول إلى حصر لتلاميذ ابن حزم يُعَدُّ مستحيلاً، فالمتتبع أسماء تلاميذه في الكتب التي عنيت بترجمته خاصةً، أو في كتب التراجم عامةً، يجد عدم استيعاب هذه الكتب لأسماء هؤلاء التلاميذ، ولعلّ ذلك يرجع إلى الأسباب التالية[2]:

١- مخالفته للمذهب السائد في بلاد الأندلس بدعوته إلى الفقه الظاهري.

٢- دعوته إلى نبذ تقليد المذاهب والجمود عليها.

٣- تشنيعه على أئمة المذاهب المتقدمين، ووقوعه فيهم، وشدته في ردوده عليهم بسبب مخالفتهم لظاهر النصوص، مما ترتب عليه عداء كثير من الفقهاء له وتحذيرهم للعامة من الدنو منه والأخذ عنه.

٤- إغراء بعض الفقهاء السلاطينَ عليه، وزعمهم أنه صاحب فتنة مما جعل السلاطين يعادونه إمَّا بإقصائه أو سجنه أو إحراق كتبه.

١- حنان بنت عيضه بن دوخي بن عثمان الثبيتي، "آراء الإمام ابن حزم الظاهري في التفسير ٣٨٤هـ-٤٥٦هـ من الآية ١٣٦ من سورة النساء إلى الآية ٥ من سورة المائدة جمعاً ودراسة"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ صـ٥٢.

٢- بدرية بنت عطية بن حمزة الحرازي الشريف، "آراء ابن حزم الظاهري في التفسير (ت٤٥٦هـ) جمعاً ودراسة من الآية ٢٠٤ من سورة البقرة إلى نهاية السورة وعدد المسائل ١١٠ مسألة"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ صـ٥٢.

٥- قربه من السياسة وولاؤه المفرط لبني أمية، وكانت قد أفلتتْ شمسهم وكَثُرَ أعداؤهم .

٦- اشتغاله بالتصنيف عن مخالطة الناس .

وفيما يلي يذكر الكاتبُ أشهر تلاميذ ابن حزم، الذين أخذوا عنه وتلقوا، وهم :

١- أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت٤٦٢هـ)[١] .

٢- أبو رافع الفضل بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت٤٧٩هـ)[٢] .

٣- أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي (ت٤٨٨هـ)[٣] .

٤- أبو الحسن علي بن سعيد العبدري (ت٤٩١هـ)[٤] .

٥- أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي (ت٤٩٣هـ)[٥] .

٦- أبو بكر محمد بن الوليد الفهري (ت٥٢٠هـ)[٦] .

هؤلاء هم بعض مَن تتلمذوا على يد ابن حزم، فتلاميذه أكثر من أن يذكرهم حصرٌ، لذا فيصعب معرفتهم جميعاً خلال المدة الطويلة التي قضاها في سبيل العلم، والحرص الشديد على نشره .

مؤلفاته :

المؤلفات إحدى الوسائل التي حفظ اللهُ عز وجل بها مآثر أهل العلم، وقد كان من هؤلاء العلماء ابن حزم، فقد صَنَّف وأكثر المؤلفات في فنون عديدة .

١- الضبي، مرجع سابق، صـ٣٢٣ .
٢- الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج٣، صـ١١٤٦ .
٣- المرجع السابق، ج٣، صـ١١٤٦ .
٤- ابن بشكوال، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٠١ .
٥- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٨، صـ٣٧ .
٦- ابن بشكوال، مرجع سابق، ج٢، صـ٤٠٥ .

فقد ترك ابن حزم بعد وفاته علماً غزيراً مسطراً في كتبه تتوارثه الأجيالُ ويتعاقبه الباحثون، فيُعدُّ ابن حزم من أكثر علماء الإسلام تأليفاً، فقد خلَّف وراءه مكتبةً موسوعيةً ضخمةً ضمت مجلداتها كثيراً من أنواع العلوم؛ الشرعية، واللُغوية والتاريخية، والأدبية، وغيرها. فقد وهب نفسه للعلم، وقصر جهده عليه، وجعلَ هدفَهُ وهمَّه وغايتَهُ تحصيل العلم ونشره، وذلك واضحٌ في قوله :

مُنَـايَ من الـدنيا علـوم أبثُهـا ... وأنشـرها في كل بـادٍ وحاضـرِ

دُعَاءٌ إلى القـرآن والسـنن الـتي ... تناسى رجالٌ ذكرها في المحاضرِ (١)

المحاضـــــــــــــــــرِ (١)

ويُروَى عن صاعد بن أحمد الأندلسي أنه قال : " أخبرني ابنُه الفضل المكنَّى أبا رافع أنَّ مبلغَ تواليفه في الفقه، والحديث، والأصول، والنِّحل، والملل، وغير ذلك من التاريخ والنسب، وكتب الأدب، والرد على المعارض نحو أربعمائة مجلَّد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. وهذا شيء ما علمناه لأحدٍ ممَن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فإنَّه أكثرُ أهلِ الإسلامِ تصنيفاً...فقد حسبتُ أيام حياته وحسبتُ تصانيفه فكان لكل يوم أربع عشرة ورقة "(٢).

ويقول الحميدي عنه : " كان متواضعاً ذا فضائل جمة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئاً كثيراً "(٣).

١- ابن بشكوال، مرجع سابق، ج٢، صـ٣٩٦ .
٢- ياقوت الحموي، مرجع سابق،ج١٢، صـ٢٣٨ .
٣- الحميدي، مرجع سابق، صـ٣٠٨ .

ويذكر ابن حزم أسبابَ كثرة مؤلفاته بقوله : " ولقد انتفعت بمحل أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمى فكري، وتهيج نشاطي، وكان سبباً إلى تواليف لي عظيمة النفع، ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثتُ لتلك التواليف "(١).

وعلى الرغم من الكم الهائل من مؤلفات ابن حزم فإنه لم يصلنا منها إلا القليل، " ويمكن إرجاع كل ذلك إلى ما تعرض له ابن حزم من المقاومة والاضطهاد من قِبل علماء المالكية، الذين كانوا يحذرون الحكام وطلاب العلم والعامة من الاتصال بمذهبه الظاهري، ويضاف إلى ذلك ما قام به المعتضد بن عباد، صاحب إشبيلية من إحراق كتب ابن حزم لكسب رضا فقهاء المالكية وأتباعهم من العامة"(٢). فلما أحرق المعتضد كتب ابن حزم نكايةً به، تألم وقال في ذلك أبياته الشهيرة :

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينـزل إن أنـزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ ... وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ مَن يدري

وإلا فعودوا في المكاتب بدأه ... فكم دون ما تبغون لله من سترِ(٣)

ولقد كانت كتبه من الكثرةِ بحيث اختلف مترجموه في حصرها وعدها، وفيما يلي يجتهد الكاتبُ لذكر أشهر مؤلفات ابن حزم، من خلال ما وقع بين يديّ الكاتب من مصادر، وهذه المؤلفات هي :

١- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦ هـ)، الدرة فيما يجب اعتقاده، تحقيق: أحمد ناصر الحمد، وسعيد القزقي، مصر: القاهرة: مطبعة المدني، ١٤٠٨هـ صـ١١٠، ١١١ .

٢- عمر فروخ، ابن حزم الكبير، لبنان: بيروت: دار لبنان، ١٤٠٠هـ صـ٥٤ .

٣- ابن بسام، مرجع سابق، ج٤،صـ٦٥٧ .

١- الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها[١].

٢- الاتصال[٢].

٣- الإحكام في أصول الأحكام[٣].

٤- اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة[٤].

٥- اختلاف الفقهاء الخمسة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداود[٥].

٦- الأخلاق والسير في مداواة النفوس[٦].

٧- الأدوية المفردة[٧].

٨- الاستجلاب[٨].

٩- أسماء الله الحسنى[٩].

١٠- إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل[١٠].

١١- الإظهار لما شنع به على الظاهرية[١١].

١٢- الاعتقاد[١٢].

١٣- الإعراب عن الحيرة والالتباس الواقعين في مذهب أهل الرأي والقياس[١]

٤- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٤ .
١- الذهبي، تذكرة الحفاظ مرجع سابق، ج٣، صـ١١٤٧ .
٢- ابن خلكان، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢٥ .
٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٧ .
٤- المرجع السابق، ج١٨، صـ١٩٤ .
٥- كتاب مشهور، نُشر عدة مرات، منها طبعة الكتب العلمية ببيروت، وقد اعتمد عليه الكاتب في هذا الكتاب
٦- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٧ .
٧- المرجع السابق، ج١٨، صـ١٩٥ .
٨- الذهبي، تذكرة الحفاظ مرجع سابق، ج٣، صـ١١٤٧ .
٩- اليافعي، مرجع سابق، ج٣، صـ٧٩ .
١٠- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٦ .
١١- الذهبي، تذكرة الحفاظ مرجع سابق، ج٣، صـ١١٤٩ .

obeikandl.com

١٤- الإملاء في قواعد الفقه[٢].

١٥- الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع[٣].

١٦- بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل[٤].

١٧-التأكيد[٥].

١٨- التبيين في هل علم المصطفى ﷺ أعيان المنافقين[٦].

١٩- التحقيق في نقد زكريا الرازي في كتابه العلم الإلهي[٧].

٢٠- التلخيص لوجوه التخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والسنة[٨].

٢١- التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بألفاظ العامية والأمثلة الفقهية[٩].

٢٢- جمهرة أنساب العرب[١٠].

٢٣- الدرة فيما يجب اعتقاده[١١].

٢٤- ديوان ابن حزم[١٢].

١٢- ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج١٢، صـ٢٥٢ .
١٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٥ .
١- ابن خلكان، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢٥ .
٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ٢٩٦ .
٣- المرجع السابق، ج١٨، صـ١٩٦ .
٤- المرجع السابق، ج١٨، صـ١٩٤ .
٥- المرجع السابق، ج١٨، صـ١٩٥ .
٦- ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج١٢، ص٢٥٢ .
٧- الحميدي، مرجع سابق، صـ٣٠٩ .
٨- كتاب مشهور، نُشر عدة مرات، منها طبعة دار المعارف بالقاهرة، بتحقيق: إ. ليفي بروفنسال، وقد اعتمد عليه الكاتب في هذا الكتاب .
٩- كتاب مشهور، نُشر عدة مرات، منها الطبعة التي صدرت عن مطبعة المدني بالقاهرة، بتحقيق: أحمد ناصر الحمد، وسعيد القزقي، وقد اعتمد عليه الكاتب في هذا الكتاب .
١٠- نُشر عدة مرات، منها طبعة دار الصحابة بالقاهرة، بتحقيق ودراسة: صبحي رشاد عبد الكريم، وقد اعتمد عليه الكاتب في هذا الكتاب .

٢٥- السيرة النبوية[١].

٢٦- طوق الحمامة في الألفة والأُلاف[٢].

٢٧- الفِصل في الملل والأهواء والنحل[٣].

٢٨- المجلّى بالاختصار[٤].

٢٩- المُحَلَّى في شَرْحِ المُجَلَّى بالحُجَجِ وَالآثارِ[٥].

٣٠- مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض[٦].

٣١- منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف[٧].

٣٢- نسب البربر[٨].

٣٣- نكت الإسلام[٩].

٣٤- اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين[١٠].

وبعد عرض كل هذه المؤلفات لابن حزم، وعلى الرغم من كثرتها إلا أن كثيراً منها مفقود، " ويدرك المطلع في مؤلفات ابن حزم بوجه عام مقدرته العقلية العجيبة في الفهم الدقيق والنظر الشامل، وفي الاستنباط الدقيق، وفي نقد آراء الغير

١١- الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج٣، صـ١١٤٧ .

١- أشهر كتب ابن حزم الظاهري، ونُشر عدة مرات، منها الطبعة التي صدرت عن مطبعة الاستقامة بالقاهرة، بتحقيق: حسين كمال الصيرفي، وقد اعتمد عليه الكاتب في هذا الكتاب .

٢- كتاب مشهور، نُشر عدة مرات، منها طبعة دار الجيل ببيروت، بتحقيق: محمد إبراهيم النصر وعبد الرحمن عميرة، وقد اعتمد عليه الكاتب في هذا الكتاب .

٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٧ .

٤- كتاب مشهور متداول، نُشرَ عدة مرات، منها طبعة دار التراث بالقاهرة، بتحقيق: أحمد محمد شاكر وهو موضوع هذا الكتاب .

٥- ابن خلكان، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢٦ .

٦- ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج٤، صـ١٦٥٧ .

٧- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٥ .

٨- الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج٣، صـ١١٤٩ .

٩- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٩٥ .

ومجادلتهم، وهذه خاصية عقلية تلحظها في عموم كتبه فلا تكاد تجده مرةً مسترخي الذهن، أو نائم العقل، أو مستسلماً للنقل، وإنما هو حاضر العقل يقظ الذهن ما يقول لابد أنه مرَّ من رأسه، وتردد بين تلافيف مخه، لذا تراه إذا عرض الموضوع الذي يريد لا يفرض عليه شيئاً من أطرافه المتشعبة ويصل إلى الهدف الذي رسمه في مبدأ الطريق بخطٍ مستقيم، وهذه صفة نادرة في العلماء الواسعي الثقافة، وتراه مع كل هذا سالكاً طريقته الحرة الصريحة التي لا يسير فيها وراء أحد مهما كانت منزلته ما دام يخالف ظاهر الكتاب والسنة، أو يأتي بقول لا يدلان عليه أو لا يعتمد فيه على صريحهما أو يخالف بداهة العقول "[1].

مذهبه الفقهي :

لقد عُرِفَ ابن حزم بظاهريته، والحديث عن ظاهريته يستدعي الحديث عن نشأة المذهب الظاهري وانتقاله إلى الأندلس، والوقوف على كيفية ظهوره ومشاهير أعلامه .

أ. نشأة المذهب الظاهري وانتقاله للأندلس :

سبق ابنَ حزم بهذا المذهب، أبو سليمان داود الأصبهاني، " وهو أبو سليمان داود بن علي ابن خلف البغدادي الظاهري المعروف بالأصبهاني، الحافظ المجتهد كان إماماً ورعاً ناسكاً زاهداً متقللاً، انتهت إليه رئاسة العلم ببغداد في وقته، وكان معجباً بالإمام الشافعي حيث صَنَّفَ في فضائله والثناء عليه كتابين، ثمّ صار صاحب مذهب مستقل"[2]، وهو أول من أظهر القول بالظاهر[3].

١- أحمد بن ناصر الحمد، ابن حزم ومولفه من الإلهيات، عرض ونقد، السعودية، مكة المكرمة، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٦هـ، صـ٧١ .
٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٣، صـ٩٧ .
٣- اليافعي، مرجع سابق، ج٢، صـ١٨٤ .

ويقول تاج الدين السبكي عن محاسن عدد من الفقهاء - ومنهم أبو سليمان داود - : " ونعتقد أنَّ أبا حنيفة، ومالكاً، والشافعيَّ، وأحمدَ، والسُّفْيانين، والأوزاعيَّ وإسحاق بن راهويه، وداود الظاهريَّ، وابن جرير، وسائر أئمة المسلمين على هدى من الله تعالى في العقائد وغيرها، ولا التفات إلى مَن تكلم فيهم بما هم بريئون منه فكانوا من العلوم اللَّدُنِّيَّة، والمواهب الإلهية، والاستنباطات الدقيقة، والمعارف الغزيرة، واللينِ والورعِ والعبادةِ والزهادةِ والجلالةِ بالمحلِّ الذي لا يسامى "[1] .

فقد كان أبو سليمان داود ناسكاً زاهداً ورعاً تقياً، يعيش على القليل أو أقل القليل، درس المذهب الشافعي، ولكنه لم يلبث قليلاً إلا وخرج عنه، مؤسساً لمذهبه الخاص المستقل الذي يعتمد على ظاهر النصوص دون تأويل، وإبطال القياس جملةً وتفصيلاً .

وارتبطت نشأة المذهب الظاهري بعلاقات وأواصر أكيدة مع أهل الحديث، وذلك للأسباب الآتية[2] :

١- أهل الظاهر محدِّثون، ومن المحدِّثين انبثقوا، وعلى أيديهم تخرَّجوا، وإمامهم أبو داود تلقى علمه على علماء الحديث في عصره، ولهذا صرَّح ابن حزم بأنَّ أصحاب الظاهر من أهل الحديث أشد اتباعاً وموافقةً للصحابة .

٢- أهدى المحدِّثون لأهل الظاهر المادةَ التي يعتمدون عليها في فقههم .

٣- كراهية المحدِّثين للقياس، وتحذيرهم من استعماله إلَّا عند الضرورة مما مَهَّدَ للظاهرية إنكار القياس .

١- ابن كثير، مرجع سابق، ج١١، صـ٤٧ .

٢- عبد المجيد محمود عبد المجيد، الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري، مصر: المنصورة: دار الوفاء، ١٩٧٩م، صـ٢٥٠-٢٥٦ .

٤- المحدِّثون هم الذين مَهَّدُوا لنشأة الظاهرية في المغرب على يد بَقيّ بن مخلد وغيره، عندما عاد من المشرق متأثراً بالمحدِّثين، ناشراً الظاهرية مرسِّخاً قواعدها.

وعلى الرغم من نسك وزهد وورع أبي سليمان داود، فلم يروِ العلماءُ عنه إلا قليلاً مع عبادته ونسكه وكونه ثقةً، وذلك للأسباب الآتية[١]:

١- إنكاره القياس جملة، وبذلك خالف جمهور الفقهاء حتى أئمة السنة مثل الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهما من أئمة الفقه بالحديث.

٢- تصريحه بأن القرآن مُحْدَثٌ، وقد تقرر في ذلك الوقت أن علماء المبتدعة هم الذين يقولون بأن القرآن مخلوق، فهو بهذا قد عدُّوه ضمن المبتدعة، وإن كان يكتم ذلك عن الإمام أحمد لينال علمه ويتلقى عنه.

ومما أُخذ على داود أنه منع التقليد منعاً مطلقاً، وأجاز لكل فاهم للعربية أن يتكلم في الدين بظاهر القرآن والسنة، حتى جرَّأ العامةَ على ما لا قِبلَ لهم به من أخذ الأحكام مباشرة من الكتاب والسنة[٢].

وعليه فإن هذا المذهب يقوم على إنكار القياس، ويرى أنَّ في القرآن والحديث ما يكفي لبيان الأحكام، فهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة، ومن ثَمَّ لُقِّبَ صاحبه بـ" الظاهري ".

وعلى ذلك اشتدت حملة العلماء على مذهب داود في حياته وبعد مماته "ومهما يكن رأي العلماء في مذهب داود فقد كانت له حياته بالمشرق وانتشر القول بالظاهر في القرنين الثالث والرابع، حتى قال أصحاب التقاسيم: إنه رابع

١- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، مصر: القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨م، صـ٣٦٥.

٢- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، مرجع سابق، صـ٢٦٠.

المذاهب بعد مذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة، فقد كان أكثر انتشاراً من المذهب الحنبلي في القرن الرابع الهجري "[1].

هذا عن نشأة المذهب الظاهري بالمشرق، " وفي القرن الخامس الهجري جاء القاضي أبو يعلى وجعل للمذهب الحنبلي مكانةً زحزحت المذهب الظاهري عن مكانه وحل محله"[2]. فإذا كان نجم المذهب الظاهري قد أفَلَ في الشرق، فقد بزغ في ذلك الوقت في بلاد الغرب .

وينتقل المذهب الظاهري - بعد أن جاء المذهب الحنبلي يبعده عن بلاد الشرق - إلى بلاد الغرب، والتي كانت أرضاً خصبةً لبزوغ شمس هذا المذهب، فهناك وجد المذهبُ الظاهري رجالَه الذين يحرسونه ويدافعون عنه .

وفي الأندلس يُعدُّ " أول مصرح بالظاهرية هو القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي مَكَّنَ لهذا المذهب غاية التمكين لمكانته العلمية في دولة الناصر، فهو خطيب الأندلس المفوّه، وقاضي الجماعة في قرطبة "[3]. ثم استمرت الظاهريةُ مذهباً مستقلاً حتى وصلت إلى إمامها الثاني ومُؤصِّلِ أصولها ومرسي قواعدها ابن حزم الذي ظهر في القرن الخامس الهجري، والذي تهيأت بجهوده واجتهاداته الظروف لانتشار المذهب الظاهري من جديد، فقد خدم ابن حزم هذا المذهب بما قام به من ترسيخ أصوله وتدوينها في الكتب والمؤلفات، وبما أفناه من عمره وحياته يذبّ عن المذهب الذي تمَذْهبَ به .

٣- المرجع سابق، صـ٢٦١ .
١- ابن كثير، مرجع سابق، ج١٢، صـ١٠٢ .
٢- الحميدي، مرجع سابق، صـ٣٤٨ .

وواصل تلاميذ ابن حزم - كالحميدي- مسيرة ظاهرية ابن حزم، حتى جاء زمن الموحدين فجعلوها منهاجاً لدولتهم[1]، ثُمَّ غدا انتشار مذهب الظاهرية بعد بعد ذلك ما بين مدٍّ وجزرٍ، يأخذ به نفرٌ قليلٌ إلى وقتنا هذا .

ب. ظاهرية ابن حزم :

يقول ابن حزم : " واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه، واتهموا كل من يدعو أن يتبع بلا برهان، وكل من ادَّعى للديانة سراً وباطناً فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم كلمة فما فوقها، ولا كان عنده ﷺ سرٌّ ولا رمزٌ ولا باطنٌ "[2] .

ومنه يتضح أن مذهب ابن حزم هو المذهب الظاهري الذي يقرِّر أنَّ المصدر الفقهي هو النصوص، ولا رأي في حكم من أحكام الشرع، مما يعني عدم الأخذ بالقياس ولا بالاستحسان، وعلى الرغم من أنَّ داود بن علي الأصبهاني هو منشئ المذهب، فيرجع لابن حزم فضل التوضيح، والبيان، والأدلة، والبسط الواضح، كما أنه فوق هذا كله أشد استمساكاً بالظاهرية من داود بن علي الأصبهاني .

وقد كان الدافع الرئيسي لتبني ابن حزم المذهب الظاهري انحراف عدد من العلماء والفقهاء الذين التفوا حول بعض الملوك ليفتوا لهم فتاوى توافق حكمهم وأهواءهم، فكانوا يستخدمون القياس في ذلك، لذا رفضه رفضاً للوصولية عندهم[3] عندهم[3]

٣- أحمد محمد بكير، المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب، لبنان: بيروت: دار قتيبة، ١٤١١هـ صـ٣٢ .

١- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦ هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم النصر، وعبد الرحمن عميرة، لبنان: بيروت: دار الجيل، (د.ت)، ج٢، صـ١١٦ .

٢- عماد جميل عبد الرحمن عبيد، "جهود ابن حزم في جدال اليهود"، رسالة ماجستير، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٧م، صـ٤٢ .

ومما يدلل على مذهبه الفقهي وأخذه بظاهر النصوص من الكتاب والسنة ما أنشده قائلاً :

وذي عذل فيمن سباني حسنه ... يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن حسن وجه لاح لم ترَ غيره ... ولم تدرِ كيف الجسم أنت قتيل؟
فقلت له أسرفت في اللوم فاتئد ... فعندي رد لو أشاء طويل
ألم ترَ أني ظاهريٌّ وأنني ... على ما بدا حتى يقوم دليل[1]

ويقول :

أُشْهِدُ اللهَ والملائكَ أنّي ... لا أرى الرأيَ والمقاييسَ ديناً
حاشَ للهِ أن أقولَ سوى ما ... جاءَ في النصِ والهدى مستبيناً
كيفَ يخفى على البصائر هذا ... وهو كالشمسِ شهرةً ويقيناً[2]

فالمذهب الظاهري قام على يد عالِمين هما؛ أبو سليمان داود بن علي، وابن حزم، فأصَّلَه داود، وزاده ابن حزم تأصيلاً وتجديداً، فألمعية ابن حزم زادت هذا المذهب شهرةً وقوةً .

فوصفت ظاهرية ابن حزم بأنها منهجية لا مذهبية، وأنَّ له نظراته التي جعلت من الواجب تسمية اجتهاده الفقهي بالحزمية[3] .

ولقد ظهرت في زماننا طائفةٌ كبيرةٌ قد انتهجت المذهب الظاهري بحذافيره وتبنت آراءَه، وقلَّدوا ابن حزم في كثيرٍ من فكره، ومنهجه، وذلك إمَّا بسبب وقوعهم

١- ابن خلكان، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢٧ .
٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ٢٠٥،٢٠٦ .
٣- عبد الحليم عويس، مرجع سابق، صـ٩٤ .

في أسر الإعجاب به وانبهارهم بقوة شخصيته، وإمَّا بسبب تتبعهم لرخص وجدوها في الظاهرية وافقت أهواءهم، وأخذوا يُطلِقون على أنفسهم (الحزميُّون) .

والمذهب الظاهري مذهبٌ بَقِيَ في الأندلس مذهباً قوياً صار له شيوخ اختصوا بالدفاع عنه[1]، وقد اعتنقه ابن حزم والمذهب كان في أكثر الأوقات حاجةً إلى مثل شخصيته، وقد قيل إنَّ ابن حزم تفقه بعد مالكيته للشافعي، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله، جليه وخفيه، والأخذ بظاهر النص، وعموم الكتاب والسنة، وصنَّف في ذلك كتباً كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه .

ج. أسباب ظاهرية ابن حزم :

بعد هذا الاستعراض الموجز لنشأة المذهب الظاهري على يد أبي سليمان داود وظاهرية ابن حزم، يمكن للكاتب أن يُعَدِّدَ الأسباب التي دفعت ابن حزم إلى الأخذ بظاهر الكتاب والسنة، وإقباله على الظاهرية واعتناقها :

١- دراسة ابن حزم للمذهب الشافعي، وتضلعه في كتبه أثَّر في فكره حيث اكتسب روح المجادلة والمناظرة للبحث عن الحق والتجرد لما يؤازره الدليل ولو كان رأياً متبعاً[2] .

٢- رسوخ قدم ابن حزم في علم الحديث ومحبته له جعلته لا يبتغي بغيره بديلاً ولا يرضى عنه تحويلاً، فكل ما وافقه الدليل فهو حق، وكل ما خالفه فهو باطل لا عبرةَ به، وفي ذلك يقول :

وفي وضع الموازين[3] .

٤- محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه، مرجع سابق، صـ٢٣٧ .

١- عبد الحليم عويس، مرجع سابق، صـ٨٩ .

٢- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦ هـ)، ديوان ابن حزم، جمع وتحقيق ودراسة: صبحي رشاد عبد الكريم، مصر: طنطا: دار الصحابة، ١٤١٠هـ، صـ٦٤ .

أنائمٌ أنتَ عن كتبِ الحديثِ ومـا ... أتى على المصطفى فيها من الـدينِ
كمسلم والبخـاري اللـذين همـا ... شـدا عرى الدين في نقلٍ وتبـيينِ
أولى بأجـر وتعظـيم ومحمـدة ... من كل قول أتى من رأي سحنونِ
يا مَن هدى بـهما اجعلني كمثلهما ... في نصر دينك محضاً غـير مفتـونِ
لا تقطعن بي ربّ العرش دونـهما ... يـوم الحسـاب

٣- تحرره من التقليد المذهبي الذي كان يُخيِّمُ على الأندلس خاصةً، والبلاد الإسلامية عامةً، فالمذهب المالكي كان سائداً في بلاد المغرب، ولم تكن بقيةُ المذاهب رائجةً، فلمَّا انتشر علم الحديث في الأندلس وظهرت كتب اختلاف الفقهاء، عرفت بعض المذاهب الأخرى كالمذهب الشافعي فبدأت بعض مظاهر التغير تحدث في الأندلس[1].

٤- أنكر ابن حزم القياس وتعليل النصوص، واعتبره تقوّلاً على الله بغير علم، خاصةً وأنَّ بعض الفقهاء اتخذه مركباً للوصول إلى السلاطين، فابن حزم كان يشهد المهازل التي تجري على مسرح السياسة الأندلسية - بحكم اختلاطه بالشؤون السياسية - باسم الشريعة، ويعرف من أسرار المجتمع الذي يعيش فيه ما لا تُتاحُ معرفته، ويدركُ أن هذه الموبقات والمفاسد والظلمات إنَّما وقعت لتجاوز النصوص الشرعية، وتأويلها، والأخذ بالقياس والرأي الشخصي والفتاوى المغرضة.

وهذا مما دعاه إلى نبذ القياس وأهله، وفي ذلك يقول:

وإنني مولـعٌ بالنصِ لسـتُ إلى ... سـواه أنحو ولا في نصرهِ أهـنُ

١- عبد الحليم عويس، مرجع سابق، صـ٨٥.

لا أنثني نحـــو آراءٍ يُقـــالُ بـــــها ... في الدينِ بل حسبي القرآنُ والسننُ

يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنـــهم فطنـــوا

دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً ... مَن مات من قولة عندي له كفنُ[1]

٥- نفرة ابن حزم من تعصب بعض الفقهاء لآراء الأئمة وعدم تعويلها على الأدلة، مما أدَّى إلى الجفوة بين بعض الفقهاء وابن حزم وطعنهم فيه وتضليله في آرائه واختياراته الفقهية .

٦- ورع ابن حزم وخشيته أن يَنسبَ إلى دين الله ما ليس منه برأي أو قياس أو استحسان، فأقبل على ظواهر النصوص، وأعرضَ عمَّا سواها .

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

يُعدُّ ابن حزم واحداً من أعلام الحضارة الإسلامية بوجه عام، ومن أبرز علماء الأندلس بوجه خاص، وقد تجلت في شخصية ذلك العالم الموسوعي سمةٌ واضحةٌ كانت لدى معظم علماء المسلمين، فقد صَنَّفَ في الفقه، وأصول الفقه، والحديث وعلوم القرآن، والأنساب، والتاريخ، والسير، والمنطق، واللغة، والتفسير، والعقيدة والفلسفة، والشعر والأدب .

وابن حزم صورةٌ للعزيمة الصادقة القوية التي لا تقبل التردد بحالٍ، يقول ياقوت الحموي : " إن ابن حزم اجتمع يوماً مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي، صاحب المنتقى، والاستغناء، وغيرهما من التواليف وجرت بينهما مناظرةٌ، فلما انقضت، قال الفقيه أبو الوليد : تعذرني فإنَّ أكثر مطالعتي كانت على سراج الحراس، قال ابن حزم : وتعذرني أيضاً فإنَّ أكثر مطالعتي كانت على منابرٍ من الذهبِ والفضةِ، أراد أنَّ الغنى أضيعُ لطلب العلم من

٢- ابن حزم، ديوان ابن حزم، مرجع سابق، صـ٦٣ .

الفقر"[1]، لكن همة ابن حزم كانت أعلى من أن يمنعها الغنى ودواعيه من طلب العلم والعكوف عليه.

واشتهر ابن حزم بعلمٍ غزيرٍ، وثقافةٍ واسعةٍ، ولم ينكر تلك المنزلة أحدٌ سواءً أكان من المؤيدين أم من المعارضين، فهو بحق موسوعةٌ علميةٌ أحاطت بأكثر المعارف التي كانت في عصره في تمكنٍ وإحاطةٍ تذهل الألبابَ وتطلق ألسنةَ العلماءِ بالمدحِ والثناءِ.

فقد نال ابن حزم الثناءَ من فحول العلماء ممن عاصروه، وممن أتوا بعده لمكانته السامية في الفهم والحفظ والإتقان، ولغزارة علمه، ولِمَا خلَّفه من مؤلفات كثيرة في علوم متنوعة.

فيقول عنه تلميذه الحميدي: "كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث، وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمة وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم، وما رأينا مثله رحمه الله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين"[2].

ويقول عنه عبد الواحد المراكشي: "وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فنال من ذلك ما لم ينله أحدٌ قبله بالأندلس"[3].

ويقول عنه ابن حيان: "كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة"[4].

١- ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج١٢، صـ٢٣٩.
١- الحميدي، مرجع سابق، صـ٣٠٩،٣٠٨.
٢- عبد الواحد المراكشي، مرجع سابق، صـ٩٣.
٣- ابن خلكان، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢٥.

ويقول عنه الذهبي : " وكان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم "(١) .

فقد تضافرت كل الروايات والأخبار على عظم منزلة ابن حزم العلمية، فقد أقر بفضله وتفوقه الموافقُ والمخالفُ، وأشاد بسعة علمه وفرط ذكائه وفطنته علماء المشرق والمغرب قدماء ومعاصرين .

ويقول عنه اليسع بن حزم الغافقي : " أما محفوظ أبي محمد فبحر عجاج وماء ثجاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجاج ألفاف النعم في رياض الهمم، لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على أهل كل دين، وألف الملل والنحل "(٢) .

وكان لابن حزم معرفة تامة في علم النحو واللغة والأدب، وكان يجيد الشعر ويصوغه صياغة حسنة، فله فيه نفس واسع، وباع طويل، وكان يقوله على البديهة وشعره كثير، وقد جمعه تلميذه الحميدي على حروف المعجم(٣) .

ويقول ابن صاعد الأندلسي : " كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار "(٤) .

هذا مع تقدمه في معرفة الأديان والمذاهب، وسعة الإحاطة بها، لكنه كان شديد العبارة على العلماء، مطلقاً لسانه فيهم، الأمر الذي جعل الكثير ينفر عنه

٤- الذهبي، تذكرة الحفاظ مرجع سابق، ج٣، صـ١١٤٦ .

١- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، لبنان: بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ صـ٤٠٩،٤٠٨.

٢- عبد الواحد المراكشي، مرجع سابق، صـ٩٤ .

٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٨٧ .

والعامة تهرب منه، ولسبب ظاهريته أيضاً أخذ العلماء في التحذير منه، والتنفير عنه، وأغروا به الأمراء، حتى أحرقت كتبه في إشبيلية ومُزِّقَتْ، وطُرِدَ وأُبْعِدَ .

ويقول عنه ابن حيان : " وكان يحمل علمه هذا، ويجادل مَن يخالفه فيه، على استرسال في طباعه...فلم يكن يُلَطِّف صَدْعَه بما عنده بتعريض، ولا يزفُّ بتدريج، بل يصك به معارضه صك الجندل، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل، فينفِّر عنه القلوب ويوقع بها الندوب، حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه، وردوا قوله وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه، والأخذ عنه، فطلق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به على منقطع أثره بتربة بلده، وبها تُوفِّيَ "(١) .

ويقول الذهبي : " ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليّه وخفيّه والأخذ بظاهر النص، وعموم الكتاب والحديث، والقول بالبراءة الأصلية واستصحاب الحال، وصنف في ذلك كتباً كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب، بل فجج العبارة، وسب وجدع، فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها ونفروا عنها وأحرقت في وقت، واعتنى بها آخرون من العلماء، وفتشوها انتقاداً واستفادةً وأخذاً ومؤاخذةً، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرصف بالخرز المهين، فتارة يطربون، ومرة يعجبون، ومن تفرده يهزؤون، وفي الجملة فالكمال عزيز، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ "(٢) .

١- ابن بسام، مرجع سابق، ج١، صـ١٦٨ .
٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٨٨ .

فقد شهد لابن حزم علماءٌ كثيرون بكثرة علمه، وسعة آفاقه، حيث إنه طرق أبواب علوم كثيرة، وصار له في كل منها رأي واجتهاد، وترك في أكثرها مؤلفات عظيمة تدل على ثروته الواسعة فيها وتمكنه القوي منها.

ويقول عنه ابن بسام: " البحر لا تكف غواريه ولا يروى شاريه، وكالبدر تحمد دلائله ولا يمكن نائله "(١).

ويقول عنه الذهبي: " ابن حزم رجل من العلماء الكبار، فيه أدوات الاجتهاد كاملة، تقع له المسائل محررة، والمسائل الواهية "(٢).

وإنه لمن الصعب جداً على الدارس استقصاء ثقافته، وتعيين شتى المجالات العلمية التي برع فيها فهو كما وصفه الدكتور/ زكريا إبراهيم: " المفكر الظاهري الموسوعي "(٣).

وقد وصفه المستشرقون الأوربيون بمؤسس علم الأديان المقارن من أجل كتابه (الفِصل في الملل والأهواء والنحل)(٤).

وهذا يوضح المنزلة والقيمة العلمية التي احتلها ابن حزم بشهادات العلماء من معاصريه، ومَن بعدهم إلى عصرنا الحاضر في أنواع العلوم المختلفة، فقلما يؤلف مؤلِفٌ بعد ابن حزم في فن من الفنون الكثيرة التي طرقها ابن حزم إلا ورجع إلى مؤلفاته واستشهد بأقواله.

ويقول عنه ابن تيمية: " كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر، ويوجد في كتبه من كثرة الاطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال

٣- ابن بسام، مرجع سابق، ج١، صـ١٤٠.

١- الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج٣، صـ١١٥٣.

٢- زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، مصر: القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

٣- عبد الكريم خليفة، ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه، لبنان: بيروت: مطابع مطوق إخوان، (د.ت)، صـ١٣٥

والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة ما لا يجتمع لغيره، فالمسألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح، وله من التمييز بين الصحيح والضعيف، والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء "[1].

ويقول عنه ابن ماكولا : "كان فاضلاً في الفقه، حافظاً للحديث، مصنفاً فيه"[2].

ويقول عنه الذهبي : " الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف...الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير، الظاهري، صاحب التصانيف، وهو رأس في علوم الإسلام، متبحر في النقل، عديم النظير "[3].

ويقول الذهبي أيضاً : " كان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة، والمذاهب والملل والنحل، والعربية، والآداب، والمنطق، والشعر، مع الصدق والديانة، والحشمة والسؤدد والرئاسة، والثروة وكثرة الكتب "[4].

ويسجل ابن حجر العسقلاني رأيه في ابن حزم بقوله : " ابن حزم الفقيه الحافظ الظاهري، صاحب التصانيف...كان واسع الحفظ جداً "[5].

ويقول السيوطي : " الإمام العلامة، الحافظ، الفقيه...كان صاحب فنون وورع وزهد، وإليه المنتهى في الذكاء والحفظ، وسعة الدائرة في العلوم، أجمع أهل

٤- ابن تيمية (أبو العباس أحمد بن تقي الدين بن شهاب الدين ت٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي، ١٣٩٨هـ ج٤، صـ١٩ .

١- ابن ماكولا (أبو نصر علي بن هبة الله ت٤٧٥هـ)، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، تحقيق: عبد الرحمن المعلمي، الهند: حيدر آباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٢هـ /١٩٦٣م، ج٢، صـ٤٥١ .

٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ١٨٤ .

٣- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، لبنان: بيروت: دار الكتب العلمية، ج٢، ص٣٠٦ .

٤- ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٢٩ .

الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام وأوسعهم، مع توسعه في علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار "[1].

ويقول عنه ابن كثير : " ابن حزم الظاهري الإمام الحافظ العلامة، اشتغل بالعلوم الشرعية النافعة وبرز فيها، وفاق أهل زمانه، وصنف الكتب المشهورة "[2]

ويقول أبو حامد الغزالي عنه : " وجدتُ في أسماء الله تعالى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم، يدل على عظيم حفظه، وسيلان ذهنه "[3].

ويقول عز الدين بن عبد السلام : " ما رأيت في كتب الإسلام مثل المحلّى لابن حزم، والمغني للشيخ الموفق "[4].

مما دفع البعض إلى القول بأن ابن حزم : " جاحظ الأندلس بلا منازع "[5].

وقال ابن قَيِّم الجوزية : " ابن حزم منجنيق الغرب "[6].

وبعد، فهذه مكانة ابن حزم عند علماء عصره، ومَن جاء بعدهم، أما في عصرنا الحديث فكان للكتّاب والباحثين فيه رأي، وله عندهم منزلة تمثلت فيما كتبوا حوله من دراسات عديدة، تناولت شخصيته وعلومه وفكره ومذهبه وآراؤه وفقهه ومن هذه الكتابات :

٥- السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ت٩١١هـ)، طبقات الحفاظ، تحقيق: جماعة من العلماء، ط٢، لبنان: بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، صـ٤٣٥ .

١- ابن كثير، مرجع سابق، ج١٢، صـ٩١ .

٢- الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٤٧ .

٣- ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٤، صـ٢٠١ .

٤- سعيد الأفغاني، مرجع سابق، صـ٤٨ .

٥- ابن قيّم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ت٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط٢٦، لبنان: بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ ج١، صـ٢٣٩ .

١- أحمد بن ناصر الحمد، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم وموقفه من الإلهيات. عرض ونقد)، وقد نشره مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، السعودية، عام ١٤٠٦هـ.

٢- الطاهر أحمد مكي، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة)، وقد نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة، مصر، عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م

٣- حسان محمد حسان، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي)، وقد نشرته دار الفكر العربي بالقاهرة، مصر، عام ١٩٦٤م.

٤- زكريا إبراهيم، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي)، وقد نشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة، مصر، عام ١٩٦٦م.

٥- عبد الحليم عويس، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري)، وقد نشرته دار الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة، مصر، عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٦- عبد الكريم خليفة، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه)، وقد نشرته مطابع معتوق إخوان ببيروت، لبنان. (د.ت).

٧- عمر فروخ، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم الكبير)، والذي نشرته دار لبنان ببيروت، لبنان، عام ١٤٠٠هـ.

٨- محمد أبو زهرة، الذي ألَّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه)، والذي نشرته دار الفكر العربي بالقاهرة، مصر، عام ١٩٧٨م.

٩- سعيد الأفغاني، الذي ألّف عنه كتاباً سماه (ابن حزم الأندلسي ورسالة المفاضلة بين الصحابة)، والذي نشرته دار الفكر العربي ببيروت، لبنان، عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

إضافةً إلى عدد من الرسائل الجامعية، منها:

١- بدرية بنت عطية بن حمزة الحرازي الشريف، "آراء ابن حزم الظاهري في التفسير (ت٤٥٦هـ) جمعاً ودراسة من الآية ٢٠٤ من سورة البقرة إلى نهاية السورة وعدد المسائل ١١٠ مسألة"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ.

٢- حنان بنت عيضه بن دوخي بن عثمان الثبيتي، "آراء الإمام ابن حزم الظاهري في التفسير ٣٨٤هـ-٤٥٦هـ من الآية ١٣٦ من سورة النساء إلى الآية ٥ من سورة المائدة جمعاً ودراسة"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ.

٣- عبد الله بن إسحاق سماورو، "آراء ابن حزم الظاهري (٣٨٤-٤٥٦هـ) في التفسير جمعاً ودراسة من سورة التوبة الآية ١٠٤ إلى نهاية سورة النور ومجموع المسائل ١٠٥"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٥هـ.

٤- علي بن جريد بن هلال العنزي، "آراء ابن حزم الظاهري في التفسير جمع ودراسة من بداية سورة التوبة إلى نهاية آية ١٠٣ من السورة نفسها"، رسالة ماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ.

٥- عماد جميل عبد الرحمن عبيد، "جهود ابن حزم في جدال اليهود"، رسالة ماجستير، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٧م.

وفاته :

بعد تطّواف كبير دام أكثر من واحد وسبعين عاماً في طلب العلم، والسياسة، والذّب عن الإسلام، ودفاعاً عن فكره ومذهبه " تُوفّي الإمام ابن حزم في آخر نهار الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة (٤٥٦هـ)، في بادية وَلْبَة وقيل إنه تُوفيَّ في منت ليشم، وهي قرية ابن حزم رحمه الله "[(١)]، مات مشرداً عن بلده ببادية بقرية له[(٢)].

ويقول الذهبي عن تاريخ وفاة ابن حزم : " في عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة، فكان عمره إحدى وسبعين سنةً وأشهراً"[(٣)]، وعليه فإنَّ ابن حزم قد توفيَّ يوم الأحد الخامس عشر من أغسطس عام ١٠٦٤م (١٥/٨/١٠٦٤م).

وفي هذا التاريخ انتقل ابن حزم لجوار ربه، مفارقاً الدنيا بجسده، مُخلِّداً علمه فيها، بعد أن أفنى حياته يدافع عن علمه وفكره ومنهجه ومذهبه، ولعلَّ أدل شيءٍ على بقاء أثره بيننا حتى الآن تلك المؤلفات الكثيرة التي تَمَّت وتتم عنه، والتي يعدُّ هذا الكتاب واحداً منها.

١- ابن خلكان، مرجع سابق، ج٣، صـ٣٢٨ .
٢- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مصر: القاهرة: مكتبة القدس، ١٣٥١هـ، صـ٢٢٩ .
٣- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج١٨، صـ٢١١ .